عشق جميل وبثينة

كل ما قرأناه عن جميل، أو قرأناه من كلام جميل، يدل على طبيعة العلاقة التى كانت بينهما، وهى العلاقة التى تكون بين الرجل والمرأة وتتعطل فيها الإرادة بعض التعطيل أو كل التعطيل، أو هى العلاقة التى نسميها العشق والغرام.

ومن الواجب أن نذكر هنا أن العلاقات الإنسانية كلها تستتبع شيئًا من تقييد الإرادة قل أو كثر. فالصديق لا يفارق صديقه بمحض اختياره، والشريك لا يفارق شريكه وله مندوحة عن فراقه، وكذلك الزميل أو الزوج أو صاحب الطريق. ولكن التفرقة هنا ضرورية بين تعطيل وتعطيل وبين تقييد وتقييد، فالذى يتعاطى دواء ينفعه أو ينتظر منه النفع يصعب عليه أن يتركه ويكف عن تعاطيه، والذى تعود التدخين يصعب عليه كذلك أن يتركه ويكف عن تعاطيه، ولكن الفرق بين تقييد الإرادة فى الحالتين واضح كل الوضوح.

ففى الحالة الأولى يفكر الإنسان فى العواقب وفى المنافع فلا يقدم على الامتناع.

وفى الحالة الثانية يفكر الإنسان أو لا يفكر فالنتيجة سواء. بل هو قد يفكر ويؤمن بالضرر ويمتلئ يقينًا بفائدة الامتناع ثم لا يمتنع ولا يفلح أحيانًا لو حاول الامتناع.

وهذا هو الفرق بين القيود التى يفرضها «الهوى» والقيود التى يفرضها الرأى أو المصلحة.

فالتدخين «هوى» من البداية إلى النهاية، وعندما يبدأ الإنسان فى تعود التدخين يكون قد بدأ فى الهوى أو أراد الهوى إن صح هذا التعبير، وليس كذلك من يتناول الدواء أو يتناول الطعام، أو يتناول حتى اللون المحبوب لديه من ألوان الطعام.

وتعطيل الإرادة أصيل فى الهوى كله ولا سيما الهوى الذى نسميه بالعشق أو نسميه بالغرام.

لأن المرء يرتبط فيه بإرادة شخص آخر، فهو مقيد بهذا الارتباط الذى لا تتفق فيه الإرادتان فى جميع الأحيان.

ثم يتقيد الشخصان معًا بإرادة النوع كله أو بالإرادة القاهرة التى تتمثل فى الغريزة النوعية وتتغلب كثيرًا على إرادة العاشقين، وإن اتفقا على حالة من الحالات.

ثم يتقيدان بالعرف الذى يفرضه المجتمع وتفرضه الآداب والأخلاق فوق ما تفرضه الطبيعة من طريق الغريزة النوعية.

ثم يتقيدان بظروف المعيشة وأحوال الدنيا التى تتاح على وفاق الهوى أو لا تتاح.

فإذا تميز العشــق بين سائر العلاقات الإنسانية بخاصة من الخواص الظاهرة فأكبر ما يتميز به هذا التقييد الشديد لإرادة العاشق من جملة نواحيه.

وقــد يبلغ به هذا التقييد لإرادته أن يحول بينه وبين فهم إرادته فــلا يعلم ماذا يريد فضلا عــن أن يعلمه ويعجز عنه، فإذا به قد انقســم على نفسه كما ينقســم المعسكر الواحد إلى ضدين متحاربين، ولا غنيمة لأحد منهما فى الانتصار، إذ هو انتصار لا يخلو فى الحالتين من خسار.

وينتهــى به الأمر إلى البقاء على حالــه عجزًا عن تغييره لا سرورًا به ولا رغبة فيه.

فهو لا يتعلق بمعشــوقه لأنه راض عن هذه العلاقة يلتذها ويتشهاها ويتذوق النعمة والهناءة فيها، ولكنه يتعلق به لأنه عاجز عن فراقه، مقيد بضروب من العادات والوساوس لا حيلة له فيها ولا قدرة له عليها.

ومثله فى ذلك مثل المدمن الذى يتعاطى السموم ولا يجهل بلواهــا، ولكنه يقلع عنها فلا يقر له قرار، فيمضى فيها وهو كاره لها يبحث ما استطاع عن سبيل النجاة.

وقد قيل لجميل كل سبب يوجب عليه، لو ملك اختياره، أن يسلو بثينة ويقلع عن هواها، فكان جوابه لكل سبب من هذه الأسباب أنه لا يستطيع؛ ولم يكن جوابه أنه يجهل تلك الأسباب أو أنه يعرفها ولا يراها موجبة عنده للتفكير فى السلو والفراق.

قال له أبوه «يا بنى! حتى متى أنت عَمِهٌ فى ضلالك، لا تأنف من أن تتعلق بذات بعل يخلو بها وينكحها وأنت عنها بمعزل، ثم تقوم من تحته إليك فتغرك بخداعها وتريك الصفاء والمودة وهى مضمرة لبعلها ما تضمره الحرة لمن ملكها، فيكون قولها لك تعليلا، وغرورًا، فإذا انصرفت عنها عادت إلى بعلها على حالتها المبذولة... إن هذا لذل وضيم.! ما أعرف أخيب سهمًا ولا أضيع عمرًا منك. فأنشدك اللّه إلا ما كففت وتأملت أمرك. فإنك تعلم أنَّ ما قلته حق، ولو كان إليها سبيل لبذلت ما أملكه فيها، ولكن هذا أمر قد فات واستبدّ به من قدر له، وفى النساء عوض».

وهذا كلام مقنع لا ينكره منكر، ويعلم جميل أنه حق كما قال أبوه.

فـإذا علم المرء هذا ولم يعمل بـــه فليس لذلك إلا علة واحدة وهى شـــلل الإرادة، وأنه فى حـــال كحال المريض الذى لا يملك الشفاء، بل ربما كان شرًا من هذا المريض فى استسلامه لدائه، لأن المريض قد يريد الشفاء ويتوسل إليه بوسائله التى فى يديه، ولكن العاشق الذى برح به العشق كما برح بجميل مشلول الإرادة حتى عن التوسل بما يستطيع أن يحاوله من وسائل الشفاء.

وهكذا كان جواب جميـــل لنصيحة أبيه، فقال له: «إنّ الرأى ما رأيـــت والقول كما قلت» ثم قال: «ولكـــن هل رأيت قبلى أحدًا قدر أن يدفع قلبه هواه؟ أو ملك أن يسلى نفسه؟ أو استطاع أن يدفع ما قضى عليه؟ واللّـــه لـــو قدرت أن أمحو ذكرها من قلبى أو أزيل شـــخصها من عينى لفعلت، ولكن لا ســـبيل إلى ذلـــك. وإنما هو بلاء بليت به لحَيـــن قد أتيح لى، وأنا أمتنع من طروق هذا الحى والإلمام بهم ولو مت كمدًا، وهذا جهدى ومبلغ ما أقدر عليه!».

وقال له ابن عمه روق مقالة الند للند الذى يفهمه ويستثير نخوته بالمناظرة فى الفتوة والمقاربة فى السن:

«إنـــك لعاجز ضعيف فى اســـتكانتك لهذه المـــرأة وتركك الاســـتبدال بها مع كثرة النســـاء ووجود من هو أجمل منها، وإنـــك منها بين فجور أرفعك عنه، أو ذل لا أحبه لك، أو كمد

يؤدى إلى التلف، أو مخاطرة بنفسك لقومها إن تعرضت لها بعد إعذارهم إليك، وإن صرفت نفسك عنها وغلبت هواك فيها وتجرعت مرارة الحزم حتى تألفها، وتصبر نفسك عليها طائعة أو كارهة ألفت ذلك وسلوت!».

وهذا كلام كله حزم وسداد، ولكن متى كان الهوى فى اشتداده إلا مخالفة للحزم والسداد؟

فما نصح أب فتاه بأحكم ولا أصوب من النصيحة التى سمعها جميل من أبيه.

وما استثار ند ندًا بأبلغ ولا أهيج للنخوة من هذا الكلام الذى قاله له ابن عمه.

لكنه أجاب هذا وذاك بجواب واحد هو العجز والبكاء، وقال لابن عمه كما قال لأبيه: «يا أخى! لو ملكت اختيارى لكان ما قلت صوابًا، ولكنى لا أملك الاختيار وما أنا إلا كالأسير لا يملك لنفسه نفعًا».

أو كما قال فى شعره:

هى السحر إلا أن للسحر رقيةً
وإنى لا ألفى لها الدهر راقيا

وأكد ذلك أوثق التأكيد حين حاول أن ينفيه فقال:

يقولون مسحور يجن بذكرهـــا
وأقسم ما بى من جنون ولا سحر

ولم يلبث أن كشف عن السحر كله والجنون كله حين أردف هذا البيت ببيت تالٍ يقول فيه:

وأقسم لا أنساك ما ذر شـارق وما هب آل فى معلمة قفر[1]

وإنما يقســم هذا القسم من هو مجنون ومسحور، أو من سماهم الناس بالمجانين لأنهم لا يملكون ما يريدون، ويوشك أن يكرهوا إرادة الخلاص لو ملكوه. فهم فى حبهم للمعشوقة التى هم مفتونون بها على حد قول المتنبى فى افتتان الأحياء عامة بالحياة:

وإذا الشيخ قال أفّ فما مــلّ
حياة وإنما الضعـف مَـــلاَّ

لا يشكون العشق لأنهم يطلبون الفكاك منه، وإنما يشكونه لأنهم يطلبون الفكاك من ألمه إن اســتطاعوه، وإلا فالبقاء فيه مع ألمه حين لا يستطيعون.

* * *

(١) ذر شارق: أى طلع نجم، والآل: هو السراب الذى يبدو فى المعلمة القفر: أى الصحراء.

وظاهــر أننا – فى قصة جميل وبثينــة – أمام عارض نادر مــن عوارض العلاقة الغرامية، لأن المشــاهد المتواتر أن هذه العلاقة تجرى فى مجراها بين كثير من الرجال والنساء، دون أن تصل إلى هذه اللجاجة الموبقة التى وصل إليها جميل.

ولا شــك أن الغرائز النوعية أقوى من إرادة الفرد إذا تحكم النزاع بينهما وبلغ مبلغ الصدام الذى لا محيص فيه من الغلبة لإحداهما. ولكن المســألة هــى أنَّ الغريــزة النوعية والإرادة الفرديــة لا تبلغان هذا المبلغ من النــزاع والصدام إلا لعارض طارئ ليــس بالمتكرر فى جميع الأحــوال، وهذه هى الندرة التى يدل وقوعها على شــذوذ فى الفرد أو شــذوذ فى الأحوال التى تعرضت لها علاقته الغرامية.

فالعشــق أصيل فــى طبائع الإنســان إذا نحــن رددناه إلى الغريــزة النوعية؛ بل هو أصيل فى طبائــع بعض الأحياء من الطيــر والوحش كما ظهــر من تلازم بعــض الأزواج واقتصار بعض الذكور على بعض الإناث، بغير تبديل إلى أمد طويل.

ولكن الغريزة النوعية لم تخلق لشقاء الأفراد ضربة لازب، ولا يلزم مــن خدمتها النوع أنها تمحق الفــرد وتتقاضاه حقه من الهناءة والحرية فى جميع الأحوال. ولا ســيما إذا تحققت

مصلحة النــوع بغير هذه التضحية التى لا توجبها خدمة فرد ولا خدمة نوع.

فإذا اصطدمت الغريزة والإرادة الإنســانية على اطراد دائم مــدى الحياة فهنالك شــذوذ لا محالة فى هــذه الإرادة أو فى الأحوال التى أحاطت بها ولابســتها، وذلك هو الشذوذ النادر الذى نشاهد مثلًا من أمثلته الواضحة فى قصة جميل.

والأغلــب – فيما يبدو لنــا – أن علة هذا الشــذوذ راجعة إلى جميل نفســه قبل مرجعها إلى الأحــوال التى أحاطت به وبمعشوقته بثينة.

فقد اصطلحت عليه أسباب كثيرة توهى من إرادته وتعرضه للعجز عن مقاومة هذه المحنة التى غلبته على رأيه.

فكان مدللا قليل التمــرس بالمصاعب كما يغلب على عامة المدللين، وكان وســيمًا تميل به وســامته إلــى التصدى لهذه الأهــواء والتفــرغ لها والوقــوف على طريقهــا، وكان المزاج الفنى – أو مزاج الشــاعرية – معوانًا له على التمادى فى هذه الغواية واســتيحاء المقاصد الشــعرية منهــا، وبخاصة حين أغناه اليســار عن معالجة الشــعر فى أبــواب المديح والرحلة إلــى الأمراء والرؤســاء، وكان فارغ الوقت لا تملؤه الشــواغل

بما ينسـيه أو يسليه أو يقسم وقته بين عمله وهواه، وكان مع هـذا ضعيف الرأى قليـل الحزم كما ذكرنا فـى فصل آخر من فصول هذه الرسـالة، وهى أسـباب فى جملتها كافية لتعليل تلك الندرة التى جعلته من أبطال العشـق المعدودين فى آداب اللغـة العربية، ويضاف إليها العصر وأثره والبيئة وحكمها، وكلاهمـا كان مما يمد فى دواعى هذه الفتنة وينحى بينه وبين وسائل الخلاص منها.

وقصة هواه لبثينة قصة من أراد الوقوع فى الهوى، ثم وقع فيه، وليسـت بقصة من أوقعته المصادفة وحاول الخلاص من البداية فامتنع عليه.

فكان فى أول عهده بالعشق يهوى «أم الجسير» أخت بثينة الكبيرة، ثم لقى بثينة فشـتمته واستملح شتمها فانصرف من تلك اللحظة عن أختها إليها، وذلك إذ يقول:

وأول مـا قـاد بيننـا
بوادى بغيض يا بثين سباب

وربمـا دل ذلك على خليقـة من الخلائق التـى نفهم بها لجاجتـه فى علاقته الغرامية على نحو يندر جدًا بين الأقوياء ذوى الغلبة من الرجال.

فمن خلائق بعض الضعفاء أن تغريهم الإساءة والحرمان، وتزيدهم كلفًا على كلف بمن أحبوا من النساء، ولا سيما المرأة التى تحسن أن تمزج المنع بالإغراء والإطماع بالإقصاء، وفى هذا يقول من قصيدة أخرى:

ولست على بذل الصفاء هويتها
ولكن سبتنى بالدلال وبالبخل

فالسباب استهواه والبخل سباه ولج به فى هواه، وتلك أبدًا آية من آيات العجز وضعف الثقة بالنفس وتعليق تلك الثقة بمشيئة غيره، إن أقبلت عليه معشوقته رضى عن نفسه واستراح إلى هذا الرضى، وإن أعرضت عنه ظل فى حيرة وابتئاس لا يزولان إلا أن يزيلهما إقبال جديد، وأما هو فليس بقادر على أن يستغنى برأيه أو يستمد الثقة من قرارة نفسه، ولو قدر على ذلك لكان إعراض المعشوقة عنه داعيًا من أكبر دواعى القطيعة والجفاء، ولكان فى وسعه أن يعرض عنها ويكف عن التعلق بها، ولا يضيره ذلك أو يشعره بنقص فى طمأنينته النفسية، لأنها طمأنينة لا تتعلق بمشيئة سواه.

وفى بعض الضعفاء خليقة قريبة من هذه الخليقة أو هى هى فى مظهر من مظاهرها المختلفة، ونعنى بها «حب التعذيب» والحنين إليه، ومن هؤلاء من يلتمسون الضرب والإيجاع فى بعض الأحيان ويسعون إليه، وقد يستأجرون من يضربهم ويوجعهم كما يصنع أناس من أصحاب هذه الخليقة فى بعض العواصم الأوربية، ويقترن ذلك دائمًا بالنزعات الجنسية على نحو من الأنحاء.

فإذا كان جميل من أصحاب هذه الخليقة فهواه على تلك الصورة مفهوم، وأسباب اللجاجة فى الهوى عنده أكثر من أن تحتاج إلى مزيد.

أقبلت بثينة على وادى «بغيض» وفيه إبل جميل لترد الماء مع جارة لها، فنفرت الإبل عن المورد، فسبها جميل وسبته، فكان هذا أول التعارف بينهما وأول الغرام، ونسب بها منذ ذلك اليوم بعد أن كان ينسب بأختها أم الجسير.

وقيل إن جميلا خرج فى يوم عيد والنساء إذ ذاك يتزين ويبدو بعضهن لبعض ويبدون للرجال، فوقف على بثينة وأختها أم الجسير فى نساء من بنى الأحب؛ ورأى منهن منظرًا عجيبًا فقعد معهن وعشق بثينة، ثم راح ومعه فتيان من

بنى الأحب عرفوا فى نظره حبها ووجدوا عليه، وقال ينسب بها من أبيات:

عجل الفراق وليته لم يعجل
وجرت بوادر دمعك المتهلل
لن تستطيع إلىبثينة رجعة
بعد التفرق دون عام مقبل

ثم علمت بثينة أنه نسب بها فحلفت باللّه لا يأتيها على خلاء إلا خرجت إليه ولا تتوارى منه.

وهنا موضع آخر للعجب أو للملاحظة:

لِمَ نسب بها وهو لا يجهل أن النسيب يحول بينهما وبين الزواج كما جرت سنة البادية التى لا تخفى عليه؟

أغلبته النزعة الفنية حتى حجبت عنه الغاية من غرامه؟ أم هى نزوة أخرى من نزوات ضعف الرأى ومطاوعة الغواية العاجلة؟ أم كان حديث العشق والغزل غرضًا مقصودًا لذاته، لا يفكر معه فى زواج ولا اتصال؟

أيسر ما يقال فى هذا المسلك إنه مسلك لا حزم فيه؛ وأنه خليق أن يلقى بصاحبه فى تلك المحنة التى ابتلى بها وساق نفسه إليها.

وقـد حيل فعـلا بين جميـل وبثينة فلم يتزوجـا، طلبها للـزواج، وتزوج بها رجل آخر قيل فـى وصفه إنه دميم أعور وظهـر من أخباره فى قصة جميـل أنه كانت له زوجة قبلها، وأن بثينة لم تعش معه طول حياتها، وذلك هو نُبيه بن الأسود العذرى الذى قال فيه جميل:

لقد أنكحوا جهلا نُبيهـا ظعينـــة
لطيفة طى الكشح ذات شَوَى خـدل

فهـى زيجة لا تغتبط بها الفتاة وليس من شـأنها أن تقطع الصلة ما بين بثينة وجميل، بل لعلها أحرى أن توثقها وتمكن من عراها، ولا سيما إذا كان الزوج مشنوءًا لفتوره وخوره وقلة حميتـه وعجزه عن إرهاب غريمه، كما كان مشـنوءًا لدمامته وتفاوت السـن بينه وبين عرسـه، وكذلك كان نبيه بن الأسود فيما وصفته لنا الروايات المختلفة كلما ألمَّ جميل بالحى وطرق بيـوت بثينة وأهلهـا فلم يجاوز غضب نُبيه أن يشـكوها إلى أبيها وأخيها.

وكأنمـا اتفقـت الدواعى جميعًـا على إطالـة العلاقة بين العاشـقين فطالـت ولـم يقطعاها معًـا حتى قطعهـا الموت،

وتخللهـــا ما لابـــد أن يتخللها من قرب وبعـــد، ولقاء وجفاء، ووشـــاية وغيرة، وفـــرص موالية وأخطار معاديـــة، مما نقله إلينـــا الرواة أو لم ينقلوه، ومما صدقوا أو لم يصدقوا فيه، ومما تناقضوا فى نقله ولا حاجة بنا إلى اتفاقهم عليه.

فبعض هـــذا التناقض يثبت القصة فى جملتها ولا ينفيها، لأنه يرينا أنّ القصة واقعة ينقلها أناس كثيرون ويســـمعونها من شـــتى المصادر، وليســـت بالاختراع الموضـــوع الذى يلفقه قاص فيقدر على التوفيق بين أجزائه والمقابلة بين أطرافه.

وبعض هذا التناقض يرجع إلى تقديرات النقاد أو القراء فيما يحكمون به على الحب وما يجوز فيه ولا يجوز فيســـتبعدون الخيـــر الذى هـــو بعيد عن الحب فى تقديرهـــم، ويميلون إلى اتهام الرواة فيه بالوضع أو قلة التحقيق.

من ذلك مثلا أن صديقنا الدكتور طه حسين يرى من دواعى التشـــكيك فى قصة جميل، أنه غدر بصاحبته مرة وأن «الغدر لا يمكن أن يصدر عن حبيب عذرى كما نفهمه».

فأحصى الدكتور ألوان الشكوك ومنها اللون الثانى وهو كما قال:

«شـــىء من الغدر لا يمكن أن يصدر عـــن حبيب عذرى كما نفهمه، ولا كما كان يفهمه القدماء. زعموا أنَّ أهل بثينة أذاعوا

فى الناس أن جميلا لا ينسب بابنتهم وإنما ينسب بأمة لهم، فغضب جميل لهذه المقالة وأراد أن يكذبها، فواعد بثينة والتقيا ذات ليلة فتحدثا، ثم عرض عليها جميل أن تضطجع فمانعت ثم قبلت وأخذها النوم، فلما استوثق جميل من ذلك نهض إلى راحلته فمضى وأصبح الناس فرأوا بثينة نائمة فى غير بيتها فلم يشكوا فى أنها كانت مع جميل. وقال جميل فى ذلك شعرًا. أتظن أنّ مثل هذا الخبر يمكن أن يكون حقًا وأن رجلا كجميل كان يحب بثينة حبًا كالذى نجده فى شعره يستطيع أن يعرضها لمثل هذه الفضيحة؟»

فتقدير الدكتور هنا لحب جميل وما ينبغى أو لا ينبغى لمثل حبه هو الذى أظهر التناقض فى هذه القصة وجنح به إلى تكذيبها.

أما إذا أخذنا بتقدير غير هذا التقدير فلا تناقض ولا موجب إذن للتكذيب.

وعندنا نحن أنّ حب جميل لا يمنع أن يعرضها لتلك الفضيحة لأنها لا تتجاوز معنى قصيدة من القصائد الكثيرة التى تغنى فيها بحبها ولقائها ومناجاتها، ثم أرسلها فى أفواه الرواة تطوف البادية والحاضرة حيث قدّر لها المطاف.

وجميل على ما يظهر من شعره يهتم بالنسيب والقالة حتى ليجازف فى سبيلها بحظه كله من معشوقته وهو عالم بهذه المجازفة، فينسب بها وقد علم أنّ هذا النسيب يحرمه أن يتزوج بها ويقسمها لغيره من طلابها. ونحن مع هذا نصدق حبه ونصدق نسيبه ولا نقول: لو كان محبًّا حقًا لترك النسيب بالمحبوبة ليظفر بها ولا يفقدها.

فالتناقض فى القصة التى استشهد بها الدكتور طه تقديرى يزول – أو يزول مؤداه – متى اختلف التقدير.

وربما اختلف التقدير فكان من أسباب توكيد الخبر أو ترجيحه ولم يكن من أسباب استبعاده ونفيه، لأن الرجل الذى يشغله النسيب هذا الشغل الشاغل يكرثه حقًّا أن يقال إنه يتغزل بأمة شائهة وأنه مسلوب العقل مضيع الحباة فى هواها، ويهون عليه أن يعلن حقيقة هواه ولا يهون عليه أن يحتمل هذه الوصمة المهينة، وعلالته فى ذلك أنه لا يخشى ضررًا من الفضيحة على من يهوى لأنها قد اشتهرت قبل ذلك بملاحقته لها ولم يصبها مصاب من ذويها، غير الشكاية والزجر الذى لا يضيرها.

والزهو بعدُ عنصر من عناصر العشق لا سبيل إلى نكرانه والاستخفاف بإغرائه وتحريضه.

فالعاشــق قد يحتمل النكبة الفادحة ولا يحتمل الغض من مكانته فى نفس معشــوقه، والشــك فى هذه المكانة هو أكبر لواعــج الغيرة، والحرص عليها هــو أقوى أواصرالمحبة، وقد يجــازف بمنفعته وراحته ولا يجــازف بلقاء تهمة تغض من تلك المكانة وتزيلها وتسقطها عنده وعند غيره.

فجميل صاحب النســيب الذى ضيع فى ســبيله بثينة كلها ليس بعجيب منه أن يعرضها لفضيحة لا تضيرها، فى ســبيل كرامة هواه وكرامة نسيبه وكرامة نسبه وأهله.

وقد ينبغى ذلك فى الهوى العذرى أو لا ينبغى فيه ولا فى هــوى من الأهواء، ولكن من هو العاشــق الذى يعمل ما ينبغى ولا يعمل ما دونه؟

إنه قد يريد أن يتحامى الضرر الذى يحيق به هو ولا يملك أن يتحاماه، وقد يريد أن يدرأ الفضيحة عن نفسه ولا يملك أن يدرأها، فلا نحاسبه بما يريد ولا بما ينبغى فى عرفه وعرف الناس، وإنما نحاســبه بما يســاق إليه وبما هو مغلوب عليه، وليس بمســتبعد علــى مغلوب أن يعمل عملًا لا يرضاه ســاعة عمله، وقد يأتيه وهو نافر منه ساعة يأتيه.

* * *

ومن النقائض التى تنجم عن تقدير القراء والنقاد أنهم ربما رأوا للهــوى العذرى صفة الكمال ثم يرون هذا الهوى فى كلام جميل وأخباره على صفة أخرى.

فالهوى العذرى كما شاع على ألسنة واصفيه هوى بعيد من الجســد ونزعاته، باقٍ ما بقيت الحياة، ثم هو لا يزال قانعًا علــى مدى الحياة؛ بالنظر والحديــث والمناجاة، وقد يتورع عن الملامســة والتقبيل كأنه صلة قائمة بين روحين لا يتمثل لهما جثمان.

وقد وصف جميل هواه على هذه الصفة فى بعض ما نســب إليه فقال:

لا والذى تسجد الجباه لــــه مالى بما دون ثوبها خبـــر
ولا بفيهـــا ولا هممت بـــه ما كان إلا الحديث والنظـــر

وقال يصف ليلة له مع بثينة:

خليلان لم يقربـــا ريبـــــة ولم يستخفا إلـــى منكـــر

وقال عباس بن ســهل الســاعدى: «دخلنا على جميل وهو يحتضــر، فنظر إلىّ وقال: يا ابن ســهل! مــا تقول فى رجل لم يشــرب الخمر ولــم يزن ولم يقتل النفس ولم يســرق، وهو

يشــهد أن لا إله إلا الـلّه وأن محمدًا رســول الـلّه؟ قلت: أظنه قد نجا. فمن هذا الرجل؟ قال: أنا... قلت: ما أحسبك سلمت وأنت تشــبب ببثينة منذ عشرين سنة. فعاد يقسم: لا نالتنى شفاعة محمد إن كنت وضعت يدى عليها لريبة، وأكثر ما كان منى أن أسند يدها إلى فؤادى أستريح ساعة!».

ووصفــوا لقاءه إياها فقالوا إنــه كان إذا أقبل حتى كان غير بعيد دعته إلى الجلوس فكأنه لصق بالأرض... «ثم يسلم عليها ويســألها عن حالها وتســأله هى مثل مســألته. ثم تقرب إليه جاريتهــا الطعام فيأكل، وتستنشــده ما قال فيها فينشــدها، ولا يزالان يتحدثان لا يقولان فحـشًا ولا هجرًا حتى إذا قارب الصبــح، ودّع كل منهمــا صاحبه أحســن وداع، وانصرفا وكل منهما يمشى خطوة ويلتفت إلى صاحبه حتى يغيبا...».

وعلى ذلك انقضت الســنون بعد السنين يفترقان ما يفترقان ثم يلتقيان هذا اللقاء، حتى افترقا إلى غير لقاء.

إلا أنّ أخبارًا أخرى فى ســيرة جميل تصرح بمبيته عندها واضطجاعــه معها، وقد صرحــت قصائده غير مــرة بالتقبيل والعناق كما قال:

تجود علينا بالحديث وتارة تجود علينا بالرضاب من الثغر

وكما قال:

كأن فتيت المسك خالط نشرهـا
تقل به أردانهـــا والمرافـــق
تقوم إذا قامت به من فراشهـــا
ويغدو به من حضنها من تعانـق

وأشباه ذلك فى شعره غير قليل.

وربما حلف لها فى بعض شـعره أنه لـم «يمس جلدًا غير جلدها» حيث يقول:

حلفت يمينًا يا بثينة صادقًـــا
فإن كنت فيها كاذبًـــا فعميت
إذا كان جلد غير جلدك مسنـــى
وباشرنى دون الشعار شريـت[1]

فهـــى كانت تتصل به وتتهمه بالاتصال بغيرها، وهو أيضًا لم يكن يكتم الشك فيها وإلقاء الريبة عليها، وله فى ذلك كلام صريح يقول منه:

(١) الشعار: ثوب يباشر الجسد، وشريت: أى أصبت بالشرى، وهو طفح مؤلم يظهر على الجلد.

تظل وراء الستر ترنو بلحظهـــا
إذا مر من أترابها من يروقهـــا

ويقول:

بثينة قالت يا جميل أربتنـــــى
فقلت كلانا يا بثين مريـــــب!
وأريبنا من لا يـؤدى أمانـــــة
ولا يحفظ الأسرار حين يغيـــب
بعيد على من ليس يطلب حاجة
وأما على ذى حاجـة فقريـــــب

أو يقول مبكتًا لها:

لحا الله من لا ينفع الوعد عنـــده
ومن حبله إن مد غيـــر متيـــن
ومن هو ذو وجهين ليس بدائـــم
على العهد حلاف بكل يميـــن
ولست وإن عزت علـىّ بقائـــل
لها بعد صرم يا بثين صلينـــــى

أو يقول مبكتًا نفسه:

وإن لأستحـى من الناس أن أرى
رديفًا لوصل أو علـىّ رديـــف
وأشرب رنقًا[1] منك بعد مـــودة
وأرضى بوصل منك وهو ضعيـف
وإنى للماء المخالـط للقـــذى
إذا كثـــرت واده لعيـــوف

وبلغه يومًا أنَّ بثينة استبدلت به حجبة الهلالى فقال:

فيابثن إن واصلت حجبة فاصرمـى
حبالى وإن صارمتـــه فصلينـــى
ولا تجعلينى أسوة العبد واجعلـى
مع العبد عبدًا مثلـــه وذرينـــى

وحدث كما جاء فى سيرته أنه سافر إلى الشام مرة فاتصلت بثينة بعده بحجبة هذا ثم طلب منها حجبة حين عاد جميل أن تصارحه بتركها إياه وتغيرها عليه فقالت أو قيل على لسانها:

ألم تر أن الماء غير بعدكـــم وأن شعاب القلب بعدك حُلّت

(١) الرنق: الكدر.

فأجابها وقد علم ما تريد:

فإن تك حُلّت فالشعاب كثيرة وقد نهلت منها قلوصى وعلّت[1]

وكان لبثينة فتى من بنى عمها يتحدث إليها فاستراب به جميل وذهب يتحدث إلى غيرها، «وجعل كل واحد منهما يكره أن يبدى لصاحبه شأنه» حتى غلبه الأمر فأقبل على البيت الذى كان يجتمع فيه معها وأقبلت هى إليه ولم تبرز له، وجعل كل منهما يطالع صاحبه، فأنشأ يقول:

لقد خفت أن يغتالنى الموت عنوة
وفى النفس حاجات إليك كما هيا
وإنى لتثنينى الحفيظة كلما
لقيتك يومًا أن أبثك ما بيا
ألم تعلمى يا عذبة الريق أننى
أظل إذا لم أسق ريقك صاديا

فرقت له بثينة وقالت لمولاة لها كانت معها: ما أحسن الصدق بأهله، ثم اصطلحا، فسألته بثينة أن ينشدها قوله:

(١) القلوص: الطويلة القوائم من الإبل، والنهل: أول الشرب، والعلل: الشرب للمرة الثانية.

تظل وراء الستر ترنو بلحظهـــا
إذا مر من أترابها من يروقهـــا

فأنشــدها إياها، فبكت وقالت: كلا يا جميل! ومن ترى أن يروقنى غيرك؟

* * *

فتلك جملة من الأخبار المتفرقة تفضى بنا إلى نتيجة ظاهرة وهــى أنّ الهوى بين جميــل وبثينة لم يكن خلــوًا من نزعات الجســد ولم يكن خلوًا كذلك من الشــك والريبة وتهمة الخيانة من الجانبين. فماذا نقول فى ذلك؟ أنقول إنه تناقض؟... نعم! هو تناقض لا شك فيه، ولكنه تناقض فى طبيعة العاطفة نفسها أو فى حالاتها وتعبيراتها، وليس هو مع ذلك بمانع حصولها، لأنها تحصل متناقضة الحالات والتعبيرات، وكذلك العواطف جميعًا لا تلتزم الدقة المنطقية فى جميع الأوقات.

فجائــز جــدًا أن يكون جميل قــد أعلن براءتــه فى بعض شــعره، وجائز أن يكون جميل قد كشــف الحقيقة فى بعضه الآخــر، وجائز جــدًا أن يكون عذريًا فيمــا اعتقد ونوى، وأن تخالطه النزعات الجسدية فيما طغى به الهوى.

ذلك كله جائز جدًا وهو الذى يحصل كل يوم ولا نزال نراه حيثما التفتنا إليه.

يحصل كل يوم أن ينوى الإنسان البراءة ويقع فى الريبة على غير وده، ويحصل كل يوم أن يعبر عن هذا وعن ذاك فى حينه ولا يكون ذلك نافيًا لما حصل بل مؤيدًا لما تعودنا حصوله كل يوم، ولا سيما إذا علمنا أنّ صاحب القصة إنسان لا يملك مشيئته ولا يزال محاولا يضطرب فى محاولاته، فيود حينًا ما يأباه فى آخر، ويستنكر فى يومه ما كان ارتضاه فى أمسه، ولعله يعود فينكره فى غده.

وإنما نحن نفرط فى التصديق إذا فهمنا أن قبيلة من القبائل تصف هواها بالبراءة التى لا يطرقها الزغل فيكون هذا الوصف عاصما لكل فرد من أفراد القبيلة، مبطلا لكل خبر يخالف تلك الصفة.

ونفرط كذلك فى التصديق إذا فهمنا أنّ الرجل ينوى الأمانة فيكون معنى ذلك أنه لم يخالف الأمانة مختارًا أو مضطرًا إلى المخالفة، ونحن متناقضون فى هذا الفهم لأننا نلمس كل يوم ما يناقضه ولا يستقيم فى طريقه.

فجميل وبثينة إنسانان كسائر الناس، لا نحكم على عمل من أعمالهما بالمناقضة وننفيه إلا إذا ناقض الطبيعة البشرية وكذَب ما تواتر من أخبار الناس.

وكل ما يبدو لنا من أخبارهما أنهما كانا عاشقين يلج أحدهما فى عشقه ويَقبل الآخر منه هذه اللجاجة.

فكان جميل يتابع بثينة وكانت بثينة تقبل منه هذه المتابعة، لأنها تألفه وتؤثره على زوجها وتستعز بهيامه ونسيبه بين أترابها.

ويجوز أنها عرفت غيره كما يجوز أنه عرف غيرها، بل يجوز أنها كانت تعتمد عليه فى بعض حاجاتها كما تعتمد المرأة على الرجل الذى يهواها، فكان الهوى بينهما على طباق الأرض ولم يكن بالهوى السابح فى أجواز الفضاء، وكانا إنسانين فى كل حالة من حالاتهما كما يكون كل إنسانين بدويين فى ذلك الزمن وفى تلك البيئة، وعند ذلك لا نرى فى أخبارهما ما يناقض الواقع أو يستبعده العقل أو يخالف ما يجرى فى علاقات الغرام.

أما الهوى العذرى فقصاراه أنه كان أمنية لهما وأمنية لكل قبيلة تعتز بالمنعة والصيانة فى بناتها. إن جرى الواقع

بما يخالفه فهــو الواقع الذى يخالف أبدًا كل عرف نصبو إلى تحقيقه، فمازال مــن دأب المثل الأعلى – أو من دأب الأمانى الاجتماعيــة – أنها تراد وتخالــف ولا يزال الناس يريدونها ويخالفونها، فلا ينفيها ذلك بل يدل على وجودها.

وقد اتفقت أســباب شــتى على توكيد هذا العرف فى قبيلة بنى عذرة وجيرانها.

فهى قبيلة باديــة توكل إليها أحيانًا حراســة الطرق بين الحجاز وما جاوره من شــماله، ففيها طبيعة البداوة أن تعتز بالمنعة والصيانة وألا تعترف بالشبهة فى بناتها ومحارمها، وفيها رغبة الحفاظ على هذه الســمعة التى تحتاج إليها وتأبى أن تمــس فيها، وإلا ديس حماها وبطلت حراســتها وتخطاها من يعتمد عليها.

وهى مع هذا قبيلة تجاور الحجاز وتعرف الإســلام وتنكر مــا ينكر من إثم وتفــرض ما يفرض من حــدود. فليس بمباح عندها أن تتصل المرأة بغير زوجها، وليســت إباحة ذلك فعلا بمانعتها أن تنكرها وتبرأ منها فى حياتها الاجتماعية.

ونحسب أنّ المنعة فى العشــق أو الاستعصام فى العلاقات بيــن الرجال والنســاء مصلحــة طبيعية نوعيــة، بل مصلحة

«فزيولوجية» كما نستطيع أن نسميها فى العصر الحديث، وليست بمصلحة اجتماعية فى القبيلة أو مصلحة دينية يوجبها الدين وحده ولا يوجبها شىء غيره على أتباعه.

فإذا كانت آداب العشق هى الآداب التى تكشف الفضائل النوعية فى العاشقين معًا فالاستعصام لازم فيها والتجمل بالعفة ضرورة من ضروراتها، لأن الاستسلام للشهوات ضعف لا يرشح صاحبه للبقاء ولا يدل على استحقاقه للحب والإيثار.

وإذا قال اليوم بعض الثراثرة المتعجلين إن العقائد القديمة هى التى كانت وحدها توجب الاستعصام على الفتيان والفتيات، وأنهم خلقاء أن يحمدوا الإباحة متى تحرروا من ربقة العقائد القديمة، فهؤلاء الثراثرة المتعجلون لا يفقهون ما يقولون.

إن الفتى والفتاة يجب أن يستعصما ولو لم يؤمنا بدين من الأديان الكتابية أو غير الكتابية، لأنهما فى دور العشق يعرضان فضائل النوع فيهما، وليس من فضائل النوع أن ينساق الفتى أو الفتاة لأول غواية، وأن تكون الشهوة هى كل ما يصبى الواحد منهما من زميله.

فالطبيعة والدين معًا يدعوان إلى العصمة بين العاشقين وينكران التدفع إلى الشهوات فى غير مساك ولا ممانعة،

وخليــق أن يتأكد ذلك فى القبيلة البدويــة التى تهمها المنعة وتجــاور كعبة الدين وتجرى على ســنة الطبيعة، فلا يضعف فيهــا ذلك التوكيد إلا العارض يوهى الحوزة ويبيح المحظور، أو على انحراف يتغاضى عنه العرف ويزعم أنه لا يقره ولا يراه.

فما اشتد من عصمة العرف بين العذريين فمعقول لا ينقض ما توجبه السنن الطبيعية.

وما جاء فى سيرة جميل وبثينة خلافًا لذلك العرف أو وفاقًا له فمعقول كذلك فى خلافه ووفاقه، لأن مخالفة العرف شــىء يقع ولا يمتنع، وشىء له أسباب فى الحياة الفردية كالأسباب التى أوجبت العرف فى الحياة الاجتماعية.

وقد أجملنا الإشــارة إلى هذه الأســباب وتلك الأســباب، فخلــص لنا منهما أن جميــلا وبثينة عاشــقان طبيعيان، وأنّ ما جرى بينهمــا ورُوى عنهما لا يناقض ما يكون ولا ما كان، ولن يوجدا على غير ما وصفا، حيث وُجدا فى تلك البيئة وفى ذلك الزمان.